أهداف حملة الإسلاموفوبيا

عزت السيد أحمد*

ملخص: تحاول هذه الورقة الوقوف على أهداف الغربيين من إطلاق حملة الإسلاموفوبيا من خلال النظر فيما تريده الإسلاموفوبيا، إنها ليست -كما يبدو من الاصطلاح- خوفًا من الإسلام بسبب احتوائه على خطر أو غلط أو إرهاب. إنما هم يخافون من قوة الإسلام المنطقية والأخلاقية. لذلك يتناول الباحث أهدافًا مثل شيطنة الإسلام وتنفير الغربيين من الإسلام وأَوْرَبَة المسلمين، فهم يهدفون إلى تدمير الإسلام عن طريق الإسلاموفوبيا، إنهم مستعدون لفعل أي شيء يجعل هدفهم الأساسي تدمير الإسلام أمرًا واقعًا؛ فالتخويف، والكراهية والخداع والشتيمة والتشويه والشحن جعلت الناس -ولاسيّما الأوربيين- يخافون من الإسلام والمسلمين خوفًا يكاد يكون مرضيًّا.

* جامعة بولند أجاويد، تركيا

The Objectives of Islamophobia Campaign

EZZAT ALSSAYED AHMAD*

ABSTRACT This paper attempts to look into the objectives of the Islamophobia campaign, and observes what it seeks to achieve. Islamophobia does not seem to resemble fear from Islam or Muslims because of any danger or affiliation to terrorism, but because of wests fear from the strength of Islam's logic and ethics. Therefore, this paper deals with matters such as alienating the west from Islam, demonizing the religion, as well as westernizing Muslims, in an attempt to destroy Islam through this campaign. Fear, hatred, deception, insults, and distortion have made people fear Islam and Muslims. Islamophobia campaign makers are willing to undertake whatever is necessary to achieve their objective which is the destruction of Islam.

* Bülent Ecevit University,Turkey

رؤية تركية
2016 - 4
97 - 81

إذا علمنا أنَّ الإسلاموفوبيا حملة قديمة، فهذا يعني أنَّ لكلِّ مرحلةٍ منها أهدافها، وإن كانت عامَّةً في جوهرها. وحقيقة أنَّ أهداف الإسلاموفوبيا ثابتة أو هي ذاتها عبر تاريخها الطَّويل- تقتضي أنَّ حملة الإسلاموفوبيا حملةٌ عقَديَّةٌ لا أنها -كما يزعمون أو يروِّجون- حالة نفسيَّة أو اجتماعيَّة أو سياسيَّة أو اقتصاديَّةً أو أخلاقيَّةً، ولا حَتَّى ردَّ فعل على وقائع معيَّنةٍ.

أن تكون الإسلاموفوبيا ناجمةً عن أيِّ سببٍ من الأسباب السَّابقة، ما عدا كونها عقيدةً عمياء صمَّاء، يعني إمكان التَّغيُّر والتَّبدُّلِ مع التَّاريخ أو مع تغيُّر المعطيات أو الظُّروف، وإمكان الانقلاب أو العكس، وفي أسوأ الأحوال الانخفاضِ في الحدَّة، أو التغيّر في طبيعة الأهداف، انتفاءً لبعضها... أمّا أن تظلَّ ثابتةً كما هي، ورُبَّما بالطَّريقة والحدَّة ذاتها عبر مئات السِّنين من دون انقطاع أو فتور فهذا يؤكِّدُ نفي كون حملة الإسلاموفوبيا حالةً نفسيَّة، أو ضغوطًا اقتصاديَّة أو مخاوف سياسيَّة، أو تقلبات اجتماعيَّة...

أولًا: شيطنة الإسلام

شيطنة الإسلام والمسلمين هي الهدف العام والغاية العريضة لحملة فوبيا الإسلام التي تبدو واضحة من خلال طريقين: أولهما الممارسة السِّياسيَّة والإعلاميَّة والأمنيَّة من خلال مؤسسات الدول الغربيَّة كما سنبيّن بعد قليل، وثانيهما من خلال الممارسة الاجتماعيَّة المتمثلة بما يُسمَّى اليمين المتطرف والسُّلوكيات الاجتماعيَّة الجَمعيَّة غير المنظمة ظاهريًّا، التي تأتي نتيجة للضخ السياسي والإعلامي، واستغلال أحداث معينة على السَّاحة الغربيَّة وغيرها.

هذا الضَّخ الإعلامي مقصودٌ ممنهجٌ متعمَّدٌ لا مصادفة، ولا نتيجة الأحداث السَّائدة كما يحاولون إيهامنا، وإيهام الجمهور الأوروبي الذي يمكن القول إنَّهُ لا ينتظر أساسًا مثل هذه الحملات، وهذا بشهادات أهلهم، وهو صحيح، فعلى سبيل المثال «أدان الكاتب الصحافي الشَّهير إيدوي بلينال في كتابه (من أجل المسلمين) المثقفين الفرنسيين الذين -تحت وطأة خلفيات أيدولوجيَّة عنصريَّة- يخلطون عمدًا بَيْنَ الإسلام والإرهاب والعنف» .

إن البرمجة المقصودة الممنهجة واضحة. يصف فالمفكر المسيحي العربي الأمريكي جيمس زغبي رئيس المركز العربي الأمريكي الكيفيَّة، يقول: «اعتمدت هذه الحملة على المخاوف الناشئة من هجمات 11 سبتمبر، والجهل المسبق بالعرب والإسلام. في البداية يطرحون سؤال (لماذا يكرهوننا؟)، ثمَّ يندفعون لتقديم إجاباتهم، مثل (لأنَّ الإسلام دين عنف)، أو لأن (العرب يكرهون)» . ويعود ليؤكد حقيقة أنَّها حملة منظمة.

من الواضح لهم ولنا أنَّهم يشيطنون الإسلام والمسلمين، وإذا كان شيطنة المسلمين أمرًا سهلًا غير مربك ولا محرج، فإن شيطنة الإسلام أمر مربك ومحرج؛ لذلك يركز الخطاب الإعلامي الغربي في بعض الأحيان على تنزيه الإسلام ظاهرًا وإقصائه من الخطاب التَّشويهي، والتَّركيز على شيطنة المسلمين؛ والأمثلة على ذلك كثيرة نستشهد بقليل منها للدلالة:

طعنـت الكاتبة الإيطاليَّة الأمريكيَّة أوريانا فالاتشي في الإسـلام والمسـلمين معًا ورفضت التمييز بَيْنَ إسـلام جيد وإسـلام سيِّئ، قالت: «التَّفكير بوجود إسـلام جيِّد وإسلام سيئ غير معقـول»أ وهـذا يفسر بعض تصريحـات الروس والأمريكان وغيرهما بأنَّـهُ لا مجال للتمييز بَيْنَ إسلامي جيد وإسلامي سيِّئ، فكلهم إرهابيون تكفيريون.

وبطريقة اللف والدوران أعلن الناطق باسـم الفاتيكان مخاوفه على الإسلام والمسلمين من داعش، فقال لصحيفة لوسور فاتوري رمانو الناطقة باسم الڤاتيكان: «إن هناك قناعة متزايدة لـدى بابا الفاتيكـان بأنَّ تنظيم داعش ورغـم دعايته ضد الغرب واليهود إلا أنَّـهُ يمثل تهديدًا حقيقيًّا للإسلام والمسلمين على وجه الخصوص» .

وهذا البابا ذاته الذي يتباكى خوفًا على الإسـلام من داعش شـيطن الإسـلام قبل سنوات قليلة، وهذا يؤكد أنَّ شـيطنة الإسـلام ليسـت مصادفة بل تخطيط مسـبق، يتبنـاه ويرعاه أعلى المؤسَّسـات الدينيَّـة والسِّياسـيَّة والفكريَّـة والإعلاميَّـة في العـالم الغـربي، فالحـبر الأعظم بابا الفاتيكان بنديكت الـ16 ذاته اقتبس في محاضرة عن الإيمان والعقل بألمانيا في 2006م: «مقتطفًا من كتاب إمبراطور بيزنطي يقول فيه إنَّ محمدًا لم يأت إلا بما هو سيئ وغير إنساني كأمره بنشر الإسـلام بحـدِّ السَّـيف» . وفي الوقت الذي بدأ فيه هـذا البابا ذاته باباويتـه بالاعتذار لليهود، على الرَّغم من أنَّ اليهود هم من قتل المسيح باعتقادهم- لم نجده يعتذر عن هذه الإسـاءة إلى الإسلام، رغم الحملات الواسعة المطالبة باعتذاره.

شيطنة الإسلام والمسلمين هي الهدف العام والغاية العريضة لحملة فوبيا الإسلام التي تبدو واضحة من خلال طريقين: أولهما الممارسة السِّياسيَّة والإعلاميَّة والأمنيَّة من خلال مؤسسات الدول الغربيَّة، وثانيهما من خلال الممارسة الاجتماعيَّة المتمثلة بما يُسمَّى اليمين المتطرف

وإذا كان هناك من يحاول التلميح أو الترقيع بَيْنَ الحين والحين، فإن هناك من يصرِّح بوضوح أنَّهُ يكره الدين الإسلامي ذاته، كالصحافي الفرنسي الشَّهير كلود إيمبير الذي يقول: «يجب أن أكون صريحًا، لديَّ نفور من الإسلام، ولا يزعجني أن أقول ذلك... لدينا الحق في محاربة العنصريَّة... ولي الحق -وهناك غيري في هذا البلد يفكّرون مثلي- أن أقول إنَّ الإسلام لا الإسلاميين يحمل مجموعة من الحماقات والتَّقاليد القديمة المختلفة».

الغاية الأساسيَّة إذن شيطنة الإسلام ذاته، والذين يقومون بهذه الشَّيطنة أفرادٌ ومؤسَّساتٌ، وقد أفرد الدكتور سيد مرعي جزءًا من بحثه للمواقع التي سماها عنصريَّة، وهي «المواقع التي تتهم المسلمين بالإرهاب، والإسلام بالدَّمويَّة والعنصريَّة، وتلصق الاتهامات الباطلة بالمسلمين في كل مكان وزمان» .

ووصل الأمر إلى تحميلِ المسلمين مسؤوليَّة المشكلات الاقتصاديَّة والسياسيَّة وغيرها، مع أن الغربيين أنفسهم يكذبون هذه الفكرة، منهم الكاتب الفرنسي إيدوي بلينال الذي دحض فكرة أنَّ «الفرنسيين المسلمين أصبحوا يمثلون مشكلة خطيرة كما يروج أغلب المثقفين الفرنسيين، كما فضح عدم صحة ربط الإسلام بمشكلات فرنسا» .

هذا الأمر يفرض عددًا من الأسئلة سنحاول الإجابة عنها فيما يأتي: لماذا شيطنة الإسلام؟ وهل يستحقُّها الإسلام؟ هل هو فعلًا شنيع إلى هذه الدرجة كما يصورون؟

ثانيًا: محاربة أسلمة أوروبا

كلمة السِّر الحقيقيَّة لفهم الإسلاموفوبيا هي الخوف من أسلمة أوروبا ومحاربة أسلمتها، هذه هي نقطة انطلاقها ونتيجتها في آن واحد، منذ مئات السنين وإلى اليوم، وكل ما يقال عن صراع مصالح وتنافس اقتصاديٍّ أو سياسيٍّ ليس إلا تنويعات على نغم الخوف من أسلمة أوروبا. بل إنَّ الحقيقة هي أنَّ صراع المصالح الاقتصاديَّة وحماية المصالح الاقتصاديَّة والسّياسيَّة ليس إلا غطاء لحقيقة الحرب على الإسلام.

الخوف من أسلمة أوروبا بدأ واضحًا مع فتح الأندلس ومعركة بلاط الشُّهداء/ بواتييه سنة 762م، وتعزّز مع الحصار العثماني لعاصمة النمسا ڤيينا بداية عام 1529م، ثمَّ عام 1532م، ثمَّ عام 1683م، ومنذ ذلك الحين لم يتوقَّف هذا الهاجس حَتَّى في ذروة السَّطوة الغربيَّة والاستعمار الغربي كما بدا تاريخيًّا، وكما سيبدو في بعض الشَّواهد في هذا البحث. وهذا

يعني أنَّ ما نتابعه اليوم ليس صدفة، ولا رد فعل على عمليَّة (إرهابيَّة)، أو على تزايد المهاجرين كما يحاول الكثيرون تفسيره وكما سيبدو من الشَّواهد الآتية.

يعلن النَّاشط اليساري دانيال كون ـ بنديت، الذي انتخب نائبًا أوروبيًّا عن الخضر في ألمانيا ثُمَّ في فرنسا أنَّ المشكلة الحقيقيَّة هي الخوف من تحوُّل الأوروبيين إلى الإسلام، قال: «في أوروبا عمومًا، يتزايد الخوف من الأسلمة» . ومن ذلك قول ميكائيل بريفو: إن «جلَّ القوانين التَّمييزيَّة مستوحاةٌ من الخوف من الإسلام» ... فالأوروبيون أنفسهم -الموضوعيون منهم والحاقدون- يعلنون ذلكَ؛ وبهذا تنهار كل الادعاءات والافتراءات ضدَّ الإسلام والمسلمين.

ينظر الأوروبيون، بعيدًا عن السِّياق التَّاريخي إلى خريطة مستقبل أوروبا من أكثر من زاوية، منها تزايد عدد المسلمين، بغضِّ النَّظر عن دخول الأوروبيين إلى الإسلام، إذ تكشف دراسات كثيرة «أنَّ 50٪ من المسلمين في غرب أوروبا اليوم مولودون في هذه الدُّول الأوروبيَّة، والأكثر أهميَّة من ذلكَ أن تزايد نسبة المواليد في صفوف المسلمين اليوم أكثر ثلاث مرات من معدل المواليد بَيْنَ غير المسلمين، وهو ما سيُسهم في تزايد عدد المسلمين في أوروبا» ... ناهيكم عن الامتدادات التَّخيُّليَّة لهذا التَّوقُّع وما يرافقها من صور الهلع والرُّعب المصطنعة.

ومن هذه الامتدادات التَّخيليَّة ما يرسمونه من سيناريوهات هوليوديَّةٍ مدهشةٍ لكيفيَّات الأسلمة، مثل «سيناريو أسلمة المدارس في برمنغهام البريطانيَّة» ، ومنها سيناريو «الكاتب الفرنسي رينو كامو الذي لوّح بمخاطر هجرة كبرى تؤدِّي إلى هيمنة المسلمين على القارة العجوز» . ورواية الأديب الفرنسي ميشال ويلبيك (استسلام) «الذي يروي أحداثًا تبدأ عام 2022م مع انتهاء الولاية الرِّئاسيَّة الثَّانية للرَّئيس الاشتراكي فرنسوا هولاند في فرنسا التي يصفها الكاتب بأنها مشرذمة ومنقسمة على نفسها، حيث سيفوز محمد بن عباس زعيم حزب (الأخويَّة الإسلاميَّة) [من ابتكار المؤلف] على زعيمة الجبهة الوطنيَّة مارين لوبن في الدَّورة الثَّانية من الانتخابات الرِّئاسيَّة، بعد حصوله على دعم أحزاب يساريَّة ويمينيَّة على السَّواء». «وتصبح السُّوربون جامعة إسلاميَّة، عميدها متزوج من ثلاث نساء إحداهن مراهقة، ويعمل بها أساتذةٌ مسلمون فقط، بينما يحال غير المسلمين وكذلكَ النِّساء إلى التَّقاعد، مع معاشات خياليَّة يوفرِّها الأمراء المسلمون أرباب الثراء...» .

على أيِّ حال، الخوف من أسلمة أوروبا، صَدَرَ عن كل المستويات الغربيَّة الرَّسميَّة وغير الرسمية. منها مؤسَّسة الڤاتيكان ذاتها التي «سبق أن أطلقت تحذيرًا من تزايد هجرة المسلمين، وتأثيرها في الهويَّة المسيحيَّة لأوروبا» . وبابا الفاتيكان بنديكتوس ذاته قبل ذلكَ بفترة قصيرة «حذَّر من انحسار الهويَّة المسيحيَّة لأوروبا في ظلِّ انخفاض معدل المواليد وزيادة عدد المهاجرين المسلمين» . وإذا كان البابا قد أعاد الأسلمة إلى العامل الإنجابي فإنَّ «السكرتير الخاص للبابا حذَّر من أسلمة أوروبا بتشديده على ضرورة عدم تجاهل الجذور المسيحيَّة للقارة». أي ربط الأمر بصراع أو تنازع ديني.

صحيح أنَّ هناك تزايدًا في عدد الدَّاخلين في الإسلام، وفي أعداد المهاجرين المسلمين إلا أنَّ حملة الإسلاموفوبيا حملة مغرضة أساسًا، تقوم على الضَّخِّ الإعلامي والإيهام والتَّضليل لتخويف الناس من الإسلام. «وقد ارتقى الأمر بأطروحة (الأسلمة) تلك إلى تحولها إلى قضيَّة رأي عامٍّ، وفي ذلك فإنَّ المتابعة الدَّقيقة للإعلام الغربي بكافة روافده، تشير إلى مدى انتشار هذا الهاجس الذي يكاد أن يشعر المرء معه بأنَّ (الأسلمة) موضوع الحديث، أصبحت قاب قوسين أو أدنى. غير أنَّ النَّظرة المتأنية للموضوع تكشف عدم صحة هذه النَّظرة، وأنَّها تقدم بشكل يتضمن قدرًا كبيرًا من المبالغات المتعمدة التي قد تخدم أهدافًا سياسيَّة وغيرها» .

وفي إطار الضَّخ الإعلامي للإسلاموفوبيا «نشرت وسائل إعلام غربيَّة تقريرًا عن الإسلام مفاده أنَّ حركات اليمين الأوروبي والمؤمنين من المسيحيين يخشون أن تتحول أوروبا إلى قارَّة مسلمةٍ في أقلِّ من عقدين حين تقترب نسبة المسلمين من نصف سكان القارة بحلول عام 2025م» . وقبل ذلكَ في عام 2004م شنَّت بعض الصُّحف الألمانيَّة حملةً واسعةً تحت عنوان: «أنَّ حصول آلاف المسلمين على الجنسيَّة الألمانيَّة أمرٌ مخيفٌ» . ما الذي يخيف؟

إنَّ الخوف من الأسلمة هو خوف من امتداد الإسلام لا أنَّ الإسلام سيّئ كما يزعمون، وبحسب كثير من المثقفين الغربيين «فإنَّ المجابهات الحالية، تتمحور في سياق مجابهة التَّمدد الرَّمزي للإسلام» . وفي مطالع عام 2012م وجَّهت مؤسَّسة "IFOP" الفرنسيَّة إثر تقرير يؤكِّد تصاعد انتشار الإسلام في أوروبا: «تحذيرًا من انتشار الإسلام في أوروبا بسبب تضاعف أعداد الأوروبيين الذين يدخلون في الإسلام» . ولماذا الخوف؟

بينما يؤكِّد الكاتب الأمريكي وليام أندرهل بناء على تقارير استخباراتيَّة «أنَّ أقصى زيادة يمكن أن يحقِّقها المسلمون في أوروبا خلال العقدين المقبلين لن يتجاوز ضعف وزنهم الحالي، حيث سيبلغ عددهم 38 مليون نسمة عام 2025م وحينها لن تتجاوز نسبتهم 8٪ من سكان القارة الأوروبيَّة». ويتابع قائلًا إنَّه على الرَّغم مما يبدو عليه العدد من ضخامة إلا أنَّهم بلا قيمة؛ لأنَّهم غثاء كغثاء السَّيل، «فالمفتاح الأساسي في تحريك هذه الكتلة هو درجة التَّنظيم السِّياسي، والائتلاف في اتحادات فاعلة، والاتفاق على موقف إسلامي موحد. وهذه كلها اعتبارات بعيدة عما يعيشه المسلمون اليوم في أوروبا منقسمين إلى انتماءات طائفيَّة وعرقيَّة. فضلًا عن أنَّ الرموز الإسلاميَّة في قطاعات الاقتصاد والسِّياسة والفن والصِّناعة تكاد تكون معدومة».

إذا كان الغرب بكلِّ هذه القوَّة والهيمنة والثِّقة بثقافته وقيمه يخاف من دخول أبنائه في الإسلام، فهو أبلغ مؤشِّر على تماسك الإسلام وقوَّته وأفضليته على كل القيم الغربيَّة، وإلا لما خاف منه هذا الخوف الهستيري. وهذا «ما جعل المواطن اليهودي ميشيل فريدمان، أحد نجوم البرامج التلفزيونيَّة الألمانيَّة، يتساءل عن سبب هذا الخوف، ويرجعه إلى غياب الثِّقة في النَّفس لدى الأغلبيَّة المسيحيَّة التي تتخوَّف من وجود 5٪ فقط من المواطنين المسلمين في ألمانيا».

ثالثًا: تنفير الغربيين من الإسلام

الهدف الثالث من أهداف حملة فوبيا الإسلام هو تنفير الغربيين من الإسلام والمسلمين، وخلق حواجز نفسيَّة بينهم وبَيْنَ الإسلام والمسلمين. وعدم التفكير في الدخول في الإسلام أساسًا وعدم التعاطف مع المسلمين.

ومن الطَّبيعي أن تتنوَّع الحملات الغربيَّة وتتكاتف لتنفير الغربيين من الإسلام والدخول فيه، كلَّما فترت مشاعر الحقد والكراهية على الإسلام والمسلمين، وكلَّما زاد الإقبال على الإسلام بينهم، «منها إقبال الأميركيين كأفراد وحكومة على التَّعرُّف على الإسلام، ومسلمي أميركا، ووجهات نظرهم، في حركة يشبِّهها مسؤولون في (كير) بأنها أشبه بموجات البحر المتلاحقة».

وإضافة إلى مراكز البحوث الخاصة بشيطنة الإسلام وتشويهه هناك مواقع الإنترنت التي هي جزء منها أو امتداد لها، وقد أكَّد الدكتور سيد مرعي في دراسته بتوافر آلاف مواقع الإنترنت المخصصة لتشويه الإسلام وشيطنته «في استكمال الحرب عليه، وتشويه صورته لدى غير المسلمين في العالم، بقصد قطع طريق الحقيقة على من يريد أن يعرف شيئًا عن الإسلام».

تتَّخذ حملة التَّنفير والشَّحن بالبغض والكراهية أشكالًا وأساليب مختلفة، ويشارك فيها رسميًّا ومنهجيًّا أعلام الفكر والأدب والسِّياسة ومؤسَّسات رسميَّة وشخصيَّاتها الاعتباريَّة، والشَّواهد غزيرة، منها اتهام الجنرال وليم بويكن المسلمين بأنهم الشَّيطان، وأنهم «يعبدون وثنًا»! . ولنفترض أنَّ هذا صحيح، فلماذا تدافع الحكومات الغربيَّة وشعوبها عمَّن يعبدون

الأوثان حقيقة، وتحميهم وترحب بهم بينما نجدها تحارب المسلمين من دون عبدة الأوثان في العالم؟ إن هذا الموقف يعكس حقيقة حملة فوبيا الإسلام، وهي أنَّ الحرب على الإسلام ذاته بعقيدته التي يؤمنون تمام الإيمان أنَّها ليست عبادة أوثان ولا عبادة شيطان، ومع ذلك كله نقول ما قاله الأمريكي المسيحي جون بيترسون في التقرير ذاته: «لو كان ضابطٌ مسلمٌ هو الذي تفوَّه بتصريحاتٍ مماثلة عن المسيحيين الإنجيليين لكانت الإدارة كلّها قد انقضت عليه». ونضيف ماذا كان يمكن أن يحدث؟

أمَّا الكاتبة الإيطاليَّة الأمريكيَّة أوريانا فالاتشي فلم تكتف بالتَّشويه والإساءة، بل تجاوزت إلى التَّحريض، فهي تقول: «العقيدة الإسلاميَّة تبث الكراهية بدلًا من المحبة، والعبوديَّة بدلًا من الحريَّة»، ولا شك أنها أخطأت الاختيار، لكنَّه الحقد الذي يعمي عن الحق، ومع ذلكَ فإنَّ السُّؤال الذي يجب أن يُطرح على نطاق واسع جدًّا هو: أيُّ الأديان الثلاثة بثًّا لقيم الكراهية والعنف؟

وفقًا لدراسات وبحوث المراكز الغربيَّة ذاتها -وهو ما سنعود إليها لاحقًا- فإنَّ الإسلام أقلّ الأديان بثًّا للكراهية وأقلها حضًّا على العنف، وأقلها تحريضًا على الإرهاب... وهذا دليل على أنَّ حملتهم عمياء.

وبإزاحة مقصودة غير ظاهرة علنًا تتحوَّل القضيَّة إلى سلوكٍ سطحيٍّ... فيلتفت النَّاس إلى القشور ويظلُّ الأصل يفعل فعله في العقل. فكلما تصاعدت الفوبيا تصاعد اليمين، وكلَّما تصاعد اليمين اتخذت الحكومات الغربيَّة قرارًا بوقف الهجرة أو الحدّ منها، وكأنَّ الحكومات الأوروبيَّة أسهمت بالفوبيا في صعود اليمين لتوجد لنفسها المسوّغ القانوني للحدِّ من هجرة المسلمين إلى أوروبا، وإغلاق الأبواب أمامهم من دون اعتراض أو انتقاداتٍ داخليَّة أو خارجيَّة، ولذلك، كما يقول الكاتب الأمريكي وليام أندرهل فإنَّ «النَّتيجة التي وصلت إليها الحكومات الأوروبيَّة بعد هذه التَّغيرات في الخريطة الانتخابيَّة هو التَّشديد على وقف الهجرة من العالم الإسلامي، وعرقلة انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي». كان هذا الكلام قبل سبع سنوات، لكن فحواه يحدث الآن تمامًا في اجتماعات الاتحاد الأوروبي.

إنَّ حملة الفوبيا مستمرة، مع أن الشَّعب في الغرب ليس بحاجة إليها لتنفيره من الإسلام والمسلمين؛ فهو ليس عاشقًا لهما أصلًا، ولا يكاد ينتظر هذه الحملات، ومن ثَمَّ نجد أن إلجاء المسلمين هناك إلى العزلة والبطالة ليس أمرًا جديدًا، مثلًا يقول رئيس منظمة الشَّباب المسلم السُّويدي رشيد موسى: «إنَّنا نشهد ارتفاعًا في نسب البطالة لدى الشَّباب المسلم، ونحن نعيش في تجمعات كبرى منعزلة عن محيطها، ووسائل الإعلام وممثلو السُّلطة حاولوا على مدى سنين خلق صورة عن الشَّباب المسلم وكأنَّهم إرهابيون محتملون، وبالتالي أصبحنا نشكل في نظر المجتمع السُّويدي تهديدًا للأمن القومي».

ونجدهم يسيئون لرسول الله محمد وللإسلام بذريعة الحريَّة الشخصيَّة، ويقولون: أسيئوا أنتم أيضًا للمسيح، وهم يعلمون أنَّ عقيدة المسلمين لا تقبل هذا... ومع ذلكَ هم متناقضون وليسوا صادقين في زعمهم، ففي أواخر عام 2003م عُرضت حلقة من مسلسل الشَّتات على تلفزيونٍ لبنانيٍّ تصوِّر يهودًا يضحُّون بطفل مسيحيٍّ لاستخدام دمه في طقوس عيد الفصح -وهو ما يعتقده المسيحيون والأوروبيون- فغضبت أمريكا، و«ندَّدت وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة، -إلى جانب السَّفير الأميركي فينسنت باتل ... والقائمة بالأعمال جين كريتز في دمشق- بالمسلسل والتلفزيون، ووصفت الحلقة بأنَّها تنطوي على تشهير... وأنَّهُ جدير بالازدراء وبأشدِّ إدانة ممكنة» . إذن لا يجوز المساس بمقدساتهم، أما مقدسات الإسلام فلا حرج في طعنها وتشويهها.

وفقًا لدراسات وبحوث المراكز الغربيَّة ذاتها فإنَّ الإسلام أقلّ الأديان بثًّا للكراهية وأقلها حضًا على العنف، وأقلها تحريضًا على الإرهاب... وهذا دليل على أنّ حملتهم عمياء

رابعًا: أَوْرَبَةُ المسلمين

أَوْرَبَةُ الإسلام شيءٌ وأَوْرَبَةُ المسلمين الأوروبيين شيءٌ آخر. أَوْرَبَةُ المسلمين الأوربيين تعني دمجهم بالمجتمع الأوروبي بالشُّروط الأوروبيَّة، وإن كان تحت مسمَّى «أوربة الإسلام، أو صبغهُ بصبغة العلمانيَّة الأوروبيَّة، في إشارة إلى تراجع ارتباط المسلمين في أوروبا بدينهم، خاصَّةً من أبناء الجيل الثَّالث؛ نتيجة الانخراط في الحياة الأوروبيَّة، وامتصاص العلمانيَّة الأوروبيَّة لهويتهم» . ولكنَّ أوربة المسلمين تعدت ذلكَ إلى أوربة الإسلام ذاته عامَّة أي حَتَّى في بلاد المسلمين كما سنبيِّن لاحقًا.

على الرَّغْم من الدِّراسات الغربيَّة الكثيرة التي تؤكِّد وجود إمكانات خصبةٍ وإيجابيات كثيرةٍ من التَّعاون الأوروبي الإسلامي إلا أنَّ الدُّول الأوروبيَّة تفضِّل السَّير عكس هذه الحقيقة، «وتُفضِّل الحفاظ على الوضع القائم بمعادلاته التَّقليديَّة» ...

وعلى الرَّغْم من مخاطر فناء أوروبا تلقائيًّا إذا لم تستقدم مهاجرين لترميم الهرم والهيكل السُّكانيين فإنَّها تتدلّل على المهاجرين، وتهدّد بالحدِّ من المهاجرين، على الرَّغْم من حاجتها الماسَّة إليهم، وتسعى إلى قولبتهم كما تريد، وقلب قيمهم وأخلاقهم وعقائدهم... وعلى هذا الأساس فإنَّ الدَّمج الذي تريده أوروبا ليس تقريب وجهات النَّظر، ولا التعايش مع احترام الآخر، بل سحق هويَّة المسلم تحديدًا ومحوها دون سواه من أصحاب العقائد، وقد كشف ناصر جابي الأستاذ في علم الاجتماع أنَّ السُّلطات الفرنسيَّة مثلًا «لا تدمج المسلم في منظومتها، إلا اذا قبل الذَّوبان فيها شكلًا ولغة ودينًا»

أخطر ما في أهداف الإسلاموفبيا هو أَوْرَبَةُ الإسلام، وتكاد الأهداف كلها تُختصَر في هذا الهدف، ويندرج ضمن تحقيق هذا الهدف عقد عشرات وربّما مئات المؤتمرات لمناقشة وضع المسلمين في أوروبا والحد من حضورهم، ووضعهم تحت السيطرة

وضمن هذا الإطار يندرج قولُ رئيس حزب الحريَّة الهولندي خيرت فيلدرس: «يجب طرد الذين يرفضون القوانين والقيم والدُّستور في البلدان الأوروبيَّة، حَتَّى وإن اقتضى الأمر نزع الجنسيَّة عن هؤلاء الأوروبيين الجدد» . وتندرج كذلك مطالبةُ وزيرة الدَّولة في وزارة العدل الهولنديَّة المسلمة من أصلٍ تركيٍّ «البرلمان بالموافقة على قانون يمنع منح الجنسيَّة للرِّجال المتزوجين بأكثر من امرأة، فيما يمثِّل محاربة لأحد مواد الشَّريعة الإسلاميَّة وَرَدَ النَّصُّ عليها في القرآن» ، بل وصل الأمر بالنائب في البرلمان الهولندي خيرت فيلدرز إلى أن «دعا المسلمين الهولنديين إلى تمزيق القرآن الكريم إذا أرادوا العيش في هولندا، كما شنَّ حملةً من أجل فرض حظر على النقاب، وحظر بناء مساجد جديدة، ووقف الهجرة أمام المسلمين جميعًا» .

وعلى هذا النَّحو كان التعامل مع المسلمين الأوروبيين الأصليين أيضًا؛ ومنهم مسلمو سلوڤينيا والبوسنة والهرسك، كشف عن هذا إبراهيم ملانوفيتش نائب مفتي سلوڤينيا عندما تحدَّث عن صراعات البلقان: «وما عاناه المسلمون بالذَّات على أيدي الصرب والكروات الذين خيروهم بَيْنَ الرُّجوع عن دينهم أو القتل» ، ولم يكن ذلكَ اجتهادًا صربيًّا أو كرواتيًّا، بل كان برعاية الدُّول الغربيَّة قاطبةً.

إن الحقيقة التي يدركونها جيِّدًا أَنَّهُ ليس أمامهم بديل سوى إدماج المسلمين في المجتمع الأوروبي؛ لأنَّ عدم إدماجهم يشكِّل خطرًا عليهم، والإدماج نفسه أيضًا يشكِّل خطرًا من ناحية الأسلمة، ففي بحثٍ للسِّياسي الأمريكي تيموثي سافيج قال: أمام أوروبا تحدٍّ داخلي «يقتضي من أوروبا إدماج الأقليَّات الإسلاميَّة التي تعيش في عزلة (في الغيتوهات) إلا أنَّها تتزايد ديموغرافيًّا، بشكلٍ سريع جدًّا، وهو ما يعتبره كثيرٌ من الأوروبيين مهدِّدًا للهويَّة الجماعية الغربيَّة ولقيم المجتمع الأوروبي» .

ولذلك هم يريدون الخروج بأقلِّ الأضرار من خلال أَوْرَبَةُ المسلمين، أو فرض الاندماج عليهم وفق الإيقاعات الغربيَّة، وتحييدهم عن النَّشاط الإسلامي والدَّعوي، وإلى هذا أشار إمام مسجد استكهولم: «إنَّ المسلمين في السُّويد باتوا يواجهون تحدِّياتٍ خطيرةً تتعلَّق بتدينهم وهويَّتهم ومستقبل أبنائهم» .

وهنا تثور مسألة مهمة، وهي أنَّ الغرب نفسه الذي يحرص على فَرْض الاندماج على المسلمين ينفِّرهم ويحاصرهم بمشاعر الكره والعداء، على الرَّغم من أنَّهم يحملون جنسيّات الدُّول الغربيَّة منذ عشرات السِّنين، ففي أمريكا صار كلُّ المسلمين إرهابيين خلال ساعة واحدةٍ، إثر أحداث الحادي عشر من أيلول، مع أن كثيرًا منهم يحملون الجنسيَّة الأمريكيَّة

منذ أكثر من مئة سنة، وصاروا مطلوبين للعدالة وتحت المراقبة... وكذلك الأمر في أوروبا، فبحسب السِّياسي والباحث الأمريكي تيموثي سافيج: «غالبيَّة المسلمين في أوروبا لا تشعر بأنَّها جزء من المجتمعات الأوروبيَّة، ولا تجد همومها ضمن هذه المجتمعات؛ لأنَّ هذه المجتمعات الأوروبيَّة أصلًا تنظر إليهم على أنَّهم أجانب أو مهاجرون» .

ومع ذلكَ كلِّه فإنَّ حمله الإسلاموفوبيا باطلة من هذه الجوانب، فمن جانب باتت زيادة الإنجاب أسطورةً إذ «إنَّ معدل الإنجاب بَيْنَ عائلات الجيل الجديد من المسلمين انخفض» ليتوازى مع الأوروبيين. ولذلك قال عاطف محمد قبل سنوات: «تتعجب حقًّا كيف يمكن تحويل ألمانيا أو أوروبا إلى القارة المسلمة بحلول عقدين» .

خامسًا: أَوْرَبَةُ الإسلام

أخطر ما في أهداف الإسلاموفبيا هو أَوْرَبَةُ الإسلام، وتكاد الأهداف كلها تُختصَر في هذا الهدف، ويندرج ضمن تحقيق هذا الهدف عقد عشرات ورُبَّما مئات المؤتمرات لمناقشة وضع المسلمين في أوروبا والحد من حضورهم، ووضعهم تحت السيطرة، والحيلولة دون انتشار الإسلام وتكييفه وفق قيمهم الأوربية... منها مؤتمر الأكاديميَّة الكاثوليكيَّة في مدينة شتوتغارت بألمانيا عام 2013 الذي «حمل عنوان: (تركي أو بوسني أو ألماني... طرُق نحو إسلام أوروبي)» .

إنّ هذه النَّتيجة: (إسلام أوروبي أو أوربة الإسلام) ليست جديدةً، لكن الغريب أن الذي اخترعها (مسلمٌ) يفاخر بذلكَ، «يحاجج بسام طيبي بأنَّ مصطلح (الإسلام الأوروبي) قد نشأ على يديه في العقدين الأخيرين» ، لكنَّ الحقيقة أنَّ جوهر أَوْرَبَةِ الإسلام؛ أي تفريغه من قيمه ومضمونه يرجع غالبًا إلى الدكتور صادق جلال العظم في أحد مؤتمرات مواجهة المدِّ الإسلامي في كوبنهاغن عام 1991م أو قبله بعام، عندما ذكر أن إنقاذ الأوروبيين من حيرتهم ومخاوفهم من أسلمة أوروبا يكمن في مواجهتها بأَوْرَبَةِ الإسلام؛ أي جعل الإسلام أوروبيًّا بقيمه وطريقته... فكان على حدِّ تعبيره أوّل من ابتدع هذه الفكرة لتبديد الخوف من الإسلام ومن كثرة المسلمين في أوروبا . وبعد ذلكَ بحين بدأ الكلام يزداد عن الإسلام المعتدل، وكثر بالمقابل الحديث عن الإسلام المتطرف، والإسلام الحقيقي، والإسلام الوسطي... ووصل الأمر اليوم إلى تحديد من هو المسلم.

عَكَفَتْ أوروبا الغربيَّة وأمريكا عشرات السِّنين على صناعة ما يسَّمى الإسلام المعتدل... وأخيرًا دخلت روسيا رسميًّا حلبة السِّباق لصناعة الإسلام المعتدل، فتجاوزت محاولات الغرب كلِّها بإعلان صارخ يزعم أنَّهُ يحدِّد من هم المسلمون؟ ومن هم أهل السنة؟ فأخرجت من أخرجت من الإسلامَ، وأدخلت من أدخلت في الإسلام، حَتَّى أمكن حشر مذاهب أهل السنة الأربعة ضمن الإسلام أو ضمن أهل السنة بصعوبة! حدث هذا في مؤتمر (أهل السنة)

في غروزني عاصمة الشيشــان، لتحديد من هم المســلمون؟ وخلطوا عمدًا بَيْنَ المذهب والدين والحزب السياسي والجماعة الدعويَّة...

المشــكلة في الإسلام المعتدل الذي يريده الغربيون هي أنَّه لا يُعرف بالضَّبط أين مبدؤه ولا أيـن منتهاه؟ وليس هذا غباءً أو تقصيرًا منهم، بل مسـألةٌ مقصودةٌ ومدروسـةٌ بعناية. صحيح أنَّ الكثيـر مـن المحللين المهتمين يركزون على أنَّ الغرب معنيٌّ بإلغاء الجهاد تحديدًا، وبعضهم يفصِّل في أنَّ المقصود به الحرب على اليهود أو النصارى أو معًا، إلا أنَّ الحقيقة تتجاوز ذلكَ.

فالإسلام المعتدل أو الإسلام الحقيقي كما يزعمون لا يتوقَّف عند إبطال الجهاد أو تعطيله، بل سـيأتي على الدين كلِّـه بملامحه وتفاصيله كلِّها، وقد شـاهدنا في السَّـنوات الأخيرة ظاهرةَ إمامـة المرأة للرجال، وخطبتها الجمعة، والصَّلاة المختلطة، وصلاة المرأة السَّـافرة، وغيرها مما يكثر نشره والترويج له. وهذا ما كانت تروج له أمريكا لسنوات، وتسعى إليه.

من هذه المظاهر ندرك جيدًا أن الإسـلام المعتدل لا يعني تعطيل الجهاد فحسـب، بل يطال الإسـلام كلَّـه مـن أركانه الأساسـيَّة كالصـلاة والصيام والـزكاة والحج وغيرها مـن الأركان والمشاعر.

الإسـلام هـو الذي تحـدِّده المخابرات الأمريكيَّـة أو الأوروبيَّة، فها هو وليـم بويكن مثلًا، ضابـط المخابـرات الأمريكيَّة، يميِّز المسـلم الحقيقي من المسـلم الزَّائف؛ يعنـي هو الذي يحدِّد الإسـلام الحقيقيَّ والإسـلام غير الحقيقـيِّ، فبويكن الذي يتحدَّث عن مقاتلٍ صوماليٍّ مسـلم يقـول بدايـةً: ««إلهي أكـبر من إلههِ... إلهي إلـهٌ حقيقيٌّ وإلههُ مجرَّد وثـن»، وعندما أراد توضيحَ مراده قال: «إنَّهُ منحرفٌ وليس من أتباع الإسـلام» . ومن حقنا أن نسـأله: هل كنت سـتحمله علـى كتفيـكَ، أو كنت سـتقدِّم لـه وردةً، بل لقمةً تسـدُّ جوعه بـدل أن تقتله لـو كان من أتباع الإسلام؟!

وهنـا نلاحظ بوضـوح تناقضات الغربيين... فالذي قال: المسـلمون يعبدون الأوثان، هو نفسـه يقـول هم لا يمثلون الإسـلام الصَّحيح أو الحقيقي... فاللفتنانـت جنرال وليم بويكين الـذي وصف الإسـلام بالشَّـيطان، والمسـلمين بعبدة أوثان، وأسـاء إلى الله تعـالى الذي يعبده المسلمون كونه ليس الإله الذي يعبده المسيحيون عند حديثه عن معاركه في الصُّومال- يتنطَّع ليعرفنا بالإسلام الحقيقي، ففي إطار تنصُّله من الاعتذار قال: «ومثلما أوضحت من قبل فإنَّهُم ليسوا ممن يتَّبعون الإسلام بشكل حقيقيٍّ»...

هـم لا يبالون بتناقضاتهم، إنما يهمّهم فقط تفريغ الإسـلام من مضمونـه، من خلال أَوْرَبَةِ الإسلام الذي باتوا يسمُّونه الآن الإسلام المعتدل. والإسلام المعتدل الذي ينشدونه هو الذي يرى في الأمريكان سـيِّدًا مباركًا، مثل بعض تصريحات شـيخ الأزهر بَيْنَ الفينة والأُخْرَى التي يؤيـد فيها الاحتلال الأمريكي للعراق، وهذه السِّياسـة الأزهريَّة «تأتي دومًا في السِّـياق الذي

يسير فيه حكام مصر المحروسة، الذين مهَّدوا للاحتلال وأيدوه، والذين يقومون بتدريب الحرس الوثني العراقي لمساعدة الأمريكان على الاحتلال، وهو الذي ينصح الأمريكان بأن لا يتركوا العراق، لأنَّ تركهم للعراق ليس في مصلحة العراقيين، لأنَّهُم جاؤوا لتعليمهم الدِّيمقراطيَّة» ، أي الإسلام المعتدل، الإسلام الصَّحيح!

ونحن لا ندري متى بدأ التَّفكير في صوغ إسلام جديدٍ يسمَّى إسلامًا لكنَّهُ ليس في الحقيقة ليس إسلامًا، بغضِّ النَّظر عمَّا إذا كانت الغاية هي تحجيم دور الإسلام وقدرته أم محاربة الإسلام ذاته.

سادسًا: المحاصرة بالحرب وعقدة الشُّعور بالذنب

يُحاصَر المواطنون الأوربيون بعقدة الشُّعور بالذَّنب تجاه اليهود بسبب ما يزعمونه من المحرقة، وتُفرَض عليهم الأتاوات، وخصوصًا الألمان للتكفير عن الذنب... هكذا يريد قادة الغرب ومفكِّروه تحديدًا؛ يريدون محاصرة المواطن الأوروبي والعالم بالشُّعور بالذَّنب تجاه جريمةٍ لم يرتكبوها... لابتزازهم وإخضاعهم لسياساتهم تجاه اليهود.

على النَّحو ذاته تتمُّ مسألة محاصرة المسلمين بعقدة الشُّعور بالذَّنب... ولا يمكن البتُّ في بدء تاريخ التَّفكير بهذه الطَّريقة، لكنَّ من المؤكد أنَّهُم استلهموا تجربة فابيوس غايسو التي أدت إلى محاصرة الأوروبيين بعقدة الشُّعور بالذَّنب.

إن محاصرة المسلمين بعقدة الشُّعور بالذَّنب والخوف تحقِّق لهم أغراضًا كثيرة جدًّا، كلُّها تصب في أهداف حملة الإسلاموفوبيا، كعزل المسلمين، وحصرهم في غيتوهات خاصَّة، وعدم اختلاطهم بالغربيين؛ لعدم معرفة حقيقة المسلمين، وكإخضاعهم للرَّغبات الأوروبيَّة/الغربيَّة وشروطهم... يرى السِّياسي والباحث الأمريكي تيموثي سافيج أنَّ «الدُّول الأوروبيَّة تعمل داخليًّا على محاولة تبيئة الإسلام واستيعابه من منظور وطنيٍّ أو علمانيٍّ؛ بحيث يصبح تابعًا للدَّولة، وخاضعًا لمعايير التعامل مع الظَّواهر الثَّقافيَّة والأديان، ولعَلَّ استحداث بعض المؤسَّسات النَّاطقة باسم المسلمين أو الممثلة لهم أحد التَّعبيرات الأساسيَّة لهذا التَّوجه» .

يبدو واضحًا أنّ هذا الكلام ينطوي على خلفيات أساسها فرض عقدة الشُّعور بالذَّنب على المسلمين في أوروبا حَتَّى يصلوا إلى حالة من القلق والهلع والقبول بالمعايير والشُّروط التي تُفرَض عليهم، فيقبلوا بالإسلام الذي يريدونه، ويرضخوا للشُّروط الغربيَّة في تحديد مفهوم الإسلام... ولأجل هذا عبَّر رشيد موسى رئيس منظمة الشَّباب المسلم السُّويدي «عن القلق العميق الذي يساور الشَّباب المسلم حيال ما يجري» ، بإيصالهم إلى مرحلة الصَّمت والقبول بانتهاك المقدَّسات الإسلاميَّة من دون اعتراض، بل وبمباركة ذلك، وقد وصلوا إلى ذلكَ فعلًا على حدِّ تعبير رشيد موسى: «لم تعد تصدمنا أخبار حرق المساجد؛ لأنَّنا نعي أنَّنا أمام واقع جديد تجب مواجهته».

وهكذا بات المسلمون أو كثيرٌ منهم في أوروبا، يتنصَّلون من الإسلام ذاته، لا من عمل يقوم به مسلم ما، ومن ذلكَ أن رئيس المجلس السُّويدي للأئمة عندما سُئِل عن أسباب الإسلاموفوبيا والاعتداءات على المسلمين قال على الفور ما يقترب من التَّنصل من الإسلام: «تصرفات بعض المسلمين المسيئة في المجتمعات الأوروبيَّة، وممارسات الجماعات المتطرِّفة» .

وعلى الرَّغْم من أنَّ الأوروبيين يشاهدون بشكل شبه يوميٍّ جرائم إرهابيَّة ضدَّ الإسلام والمسلمين، إلا أنها تمرُّ بهدوءٍ وصمتٍ من دون اتهام النَّصرانيَّة أو الأوروبيين بالإرهاب، بَيْنَما إذا ارتكب مسلم جرمًا أو مخالفة نجدهم يبادرون إلى اتِّهام الإسلام والمسلمين كلهم بالإرهاب.

في هذا السياق تستكمل دائرة المحاصرة تسويغ الحروب الغربيَّة ضدَّ العالم الإسلامي، وهذا الهدف قديمٌ برز في أول ظهور واضح له في التَّجييش للحروب الصَّليبية منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، وهو أمرٌ متضمَّنٌ أساسًا في الأهداف السَّابقة بطريقة ما، ناهيكم عن تداخل الأهداف وتشابكها. وفي هذا السِّياق أيضًا تسويغ الضُّغوط على المسلمين في الغرب، وفي بلاد المسلمين أنفسهم لحملهم على الاستجابة لما تريده منهم السِّياسة الغربيَّة من الأهداف التي سبق الكلام عنها...

إن الحرب الغربيَّة الأوروبيَّة، ثمَّ الأمريكيَّة الأوروبيَّة على العالم الإسلامي ليست جديدةً مطلقًا... وهذا يعني أن ساسة الغرب ليسوا بحاجةٍ إلى تقديم المسوِّغات والمبرِّرات من أجل شنِّ حروبهم العسكريَّة أو السياسيَّة أو الاقتصاديَّة أو الإعلاميَّة على العالم الإسلامي، وكانت

في هذا السِّياق الحرب على أفغانستان، والصُّومال، والعراق، ومالي، وسوريا... وغيرها، وفي هذا السِّياق أيضًا يندرج السُّكوت المخزي على حروب الإبادة الوحشيَّة ضدَّ مسلمي بورما، وإفريقيا الوسطى، والعراق، وسوريا...

خاتمة

في الختام، يفرض تساؤلٌ كبير نفسه في ظلِّ هذه الحملة المحمومة على الإسلام، وهو: ما مدى استجابة الشَّعب الغربي لهذه الحملة والإيمان بها؟

مَثَل الشَّعب الأوروبيُّ والأمريكيُّ مثل أيِّ شعبٍ يتأثَّر بما يضخّه له الإعلام والشَّائعات، وما ينتشر في أوساطه من أفكار وقناعات ومعتقداتٍ، وقلَّما يكلِّف نفسه مشقة البحث عن الحقيقة، فهو يؤثر الاستسلام لما هو رائج والاقتناع به على أن يفكر أو يبحث عن الحقيقة، ولا يُعتدّ بالقلّة من الناس التي تخالف ذلك. هذه حقيقةٌ نفسيَّةٌ واجتماعيَّةٌ لا رأيّ أو توقّع. وأقرب مثال على ذلكَ أنَّ الشعوب الأوروبية ما كانت تعرف كثيرًا عما يدور في سوريا على مدار خمس سنوات، وعندما تصاعدت أزمة اللاجئين تعاطف الجميع مع السوريين، ولكن فجأة انقلب التَّعاطف إلى حرب عليهم بسبب انقلاب الخطاب الإعلامي، وتحميل اللاجئين بعض الجرائم التي وقعت في أوروبا. هذه النقطة الأولى.

أمَّا النُّقطة الثَّانية فهي أنَّ ما يُسمَّى بالوعي الحضاري الذي يعيشه الغربيون -وهو حقيقة لا ننكرها- لم يغير قناعاتهم تجاه الإسلام والمسلمين؛ لأن الثَّقافة الغربيَّة لا تريد هذا التغيير ولا تسعى إليه، ولكن بسبب الفكر الاجتماعي والسِّياسي السَّائد فإنَّ الشَّعب الغربيَّ عامَّةً لا مطلقًا يؤمن بحرية الآخَر واحترامه الآخَر، ولذلك تجدهم عامَّةً ضدَّ الاعتداء على حريات المسلمين في أوروبا أو أمريكا استنادًا إلى كونهم مواطنين أو لاجئين، ولكنَّهُم لا يكترثون كثيرًا بل أبدًا بما تفعله حكوماتهم بالمسلمين في العالم.

النُّقطة الثَّالثة والأخيرة هي أنَّ الشَّعب الغربيَّ مثقلٌ أساسًا بقناعاتٍ راسخةٍ عبر مئات السِّنين ضدَّ الإسلام والمسلمين، ومن ثمَّ فإنَّهُم لا ينتظرون حملة فوبيا الإسْلام لتكوين مواقف أو قناعات مخالفة لقناعاتهم ومعتقداتهم. السِّمة العامَّة للعقليَّة الغربيَّة في هذا الإطار هي عدم حبّ الإسلام والمسلمين، وعدم الارتياح لهم. ولذلك من المضحك رصد تزايد التَّغريدات المعادية للإسلام من قبل الغربيين على أنَّها تغّير في القناعة أو الموقف، وكأنَّهُم كانوا فيما قبل يمجّدون الإسلام! والسُّؤال الذي يجب أن يطرح ههنا: هل قلّ في المقابل عدد التغريدات التي تحبّ الإسلام أو المسلمين؟ والجواب، لا؛ لأنها لم تكن موجودة أصلًا.

نحن هنا نصف الواقع ونحلّله وإن كان مرًّا، ونستشهد على ما نقول بالأدلة والحُجج، ولذلك لا يُعدّ هذا من باب صبِّ الزَّيت على النار، فنحن نرى الإيجابيات مثلما نرى السَّلبيات، وننظر إلى الحقيقة بعين العدل والإنصاف.

الهوامش والمصادر :

1. صدر عن دار لاديكوفرت بفرنسا في أيلول/ سبتمبر 2014م.
2. بوعلام رمضاني: إيدوي بلينال في كتابه من أجل المسلمين ـ الجزيرة نت ـ 2014/9/27م.
3. جيمس زغبي: حملة منسقة ومتعصبة ـ جريدة الشرق الأوسط ـ لندن ـ العدد 9029 ـ 18/8/ 2003م.
4. وكالات: قاض إيطالي يأمر بمحاكمة الكاتبة فالاتشي بتهمة إهانة الإسلام ـ الجزيرة نت ـ 2005/5/25م.
5. كان ذلكَ في عددها الصادر في منتصف آذار/ مارس عام 2015م. وقد تداولته مختلف وسائل الإعلام العالمية في ذلكَ الحين.
6. وكالات: البابا ينتقد الإسلام ويقتبس إساءة لنبيه ـ الجزيرة نت ـ الخميس 2006/9/14م.
7. وكالة الأنباء الفرنسية: صحفي فرنسي يجاهر بازدرائه للإسلام ـ الجزيرة نت ـ 2003/10/25م.
8. قدس برس: آلاف المواقع لمهاجمة الإسلام ـ موقع دنيا الوطن ـ غزة ـ 4/ 10/ 2005م.
9. بوعلام رمضاني: إيدوي بلينال في كتابه من أجل المسلمين ـ الجزيرة نت ـ 2014/9/27م.
10. متابعات: أسلمة الغرب... العقدة الأوروبية الجديدة ـ موقع إيلاف ـ 8 /1/ 2015م.
11. لبيب فهمي: المنتدى الأول لانتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا في بروكسل ـ الجزيرة نت ـ 2014/12/15م.
12. تيموثي سافيج: أوروبا والإسلام: الهلال المتنامي وصدام الثقافات ـ ترجمة الموقع ـ موقع إخوان أون لاين ـ الاثنين 2004/08/19م.
13. بوابة الحركات الإسلامية: مخاوف من أسلمة أوربا واستعدادات فرنسية وبريطانية للمواجهة ـ موقع بوابة الحركات الإسلامية؛ نافذة لدراسة الإسلام السياسي والأقليات ـ الأربعاء 23/7/ 2014م.
14. متابعات: أسلمة الغرب... العقدة الأوروبية الجديدة ـ موقع إيلاف ـ الخميس 8/1/ 2015م.
15. متابعات الموقع: فوبيا أسلمة أوروبا ـ موقع بوابة الأزهر ـ الثلاثاء 9/2/ 2016م.
16. محمود سلطان: الخوف من أسلمة أوروبا.. مجدداً! ـ موقع الإسلام؛ حركة التوحيد والإصلاح ـ الأربعاء 4 /3/ 2009م.
17. محرر ديانات: أسلمة أوروبا؛ حدود الوهم ومؤشرات الواقع ـ موقع البيان؛ عالم واحد ـ 8 /11/ 2008م.
18. محرر ديانات: أسلمة أوروبا؛ حدود الوهم ومؤشرات الواقع ـ مصدر سابق.
19. عاطف محمد: أوربة الإسلام أم أسلمة أوروبا؟ ـ الجزيرة نت ـ االموافق 2009/9/6م.
20. تيموثي سافيج: أوروبا والإسلام: الهلال المتنامي وصدام الثقافات ـ مصدر سابق.
21. محمود سلطان: الخوف من أسلمة أوروبا.. مجدداً! ـ مصدر سابق.
22. استفتاء مؤسسة "IFOP" الفرنسية التابعة للحكومة الفرنسية في معظم دول الاتحاد بعنوان «كيف يرى الأوروبيون الإسلام؟». في مطالع عام 2012م.
23. عاطف محمد: أَوْرَبَةُ الإسلام أم أسلمة أوروبا؟ ـ مصدر سابق.
24. بيتر فيليب وعبد الحي العلمي: لماذا الخوف من الإسلام في أوروبا؟ ـ مراجعة سمير كرم ـ موقع DW الألماني ـ الأربعاء 9 كانون الأول/ ديسمبر 2009م.
25. قدس برس: منظمة إسلامية تنتقد التشكيك اليهودي في تعداد مسلمي أميركا ـ الجزيرة نت ـ 2001/10/27م. و(كير) هو اختصار لمجلس العلاقات الإسلامية الأميركية.
26. قدس برس: آلاف المواقع لمهاجمة الإسلام ـ موقع دنيا الوطن ـ غزة ـ 4/ 10/ 2005م.
27. وكالة الأنباء الفرنسية: مسؤول أميركي؛ المسلمون يعبدون صنمًا وسنهزمهم ـ الجزيرة نت ـ 2003/10/18م.
28. وكالات: قاض إيطالي يأمر بمحاكمة الكاتبة فالاتشي ـ مصدر سابق.
29. عاطف محمد: أوربة الإسلام أم أسلمة أوروبا؟ ـ مصدر سابق.
30. جورج حوراني: الإسلاموفوبيا تهدد مسلمي السويد ـ الجزيرة نت ـ 2015/1/4 م.
31. رويتر: واشنطن تندد ببث حلقة من مسلسل الشتات ـ الجزيرة نت ـ 2003/11/20م.
32. عاطف محمد: أوربة الإسلام أم أسلمة أوروبا؟ ـ مصدر سابق.
33. تيموثي سافيج: أوروبا والإسلام: الهلال المتنامي وصدام الثقافات ـ مصدر سابق.

34. فائزة مصطفى: الإسلاموفوبيا في فرنسا؛ حروب افتراضية ـ الجزيرة نت ـ 2013/7/30م.
35. بيتر فيليب وعبد الحي العلمي: لماذا الخوف من الإسلام في أوروبا؟ ـ موقع DW الألماني ـ الأربعاء 9 /12/ 2009م.
36. محرر ديانات: أسلمة أوروبا؛ حدود الوهم ومؤشرات الواقع ـ مصدر سابق.
37. فرنس 24: هولندا؛ حزب الحرية يتعهد بإغلاق المساجد وحظر القرآن ـ فرانس 24 ـ 2016/8/26م.
38. سيد أحمد زروق: المراكز الإسلامية بالبلقان تواجه الإسلاموفوبيا ـ الجزيرة نت ـ 2014/1/5م..
39. تيموثي سافيج: أوروبا والإسلام؛ الهلال المتنامي وصدام الثقافات ـ مصدر سابق.
40. جورج حوراني: الإسلاموفوبيا تهدد مسلمي السويد ـ مصدر سابق.
41. تيموثي سافيج: أوروبا والإسلام؛ الهلال المتنامي وصدام الثقافات ـ مصدر سابق.
42. إبراهيم درويش : كتابات أمريكية تروج لفكرة أسلمة أوروبا ـ موقع مصرس ـ 17 / 08 / 2009م.
43. عاطف محمد: أوربة الإسلام أم أسلمة أوروبا؟ ـ مصدر سابق.
44. خالد شمت: قضايا مسلمي أوروبا بمؤتمر في ألمانيا ـ الجزيرة نت - الموافق 2013/11/18م.
45. عاطف محمد: أوربة الإسلام أم أسلمة أوروبا؟ ـ الجزيرة نت ـ 2009/9/6م.
46. كان هٰذا الكلام في جلسة خاصة في قسم الفلسفة بجامعة دمشق عام 1992م بحضور عدد من أساتذة القسم.
47. وكالات: جنرال أميركي يبرر تصريحاته المعادية للإسلام ـ الجزيرة نت ـ 2003/10/18م.
48. الدكتور غالب الفريجات: الإسلام الأمريكي في عقول الأئمة ـ شبكة البصرة ـ لـ 24 /1/ 2005م.
49. تيموثي سافيج: أوروبا والإسلام؛ الهلال المتنامي وصدام الثقافات ـ مصدر سابق.
50. جورج حوراني: الإسلاموفوبيا تهدد مسلمي السويد ـ الجزيرة نت ـ 2015/1/4 م.
51. المصدر السابق.